دور نصارى المغرب الأقصى في الحياة السياسية والعسكرية في عصر الموحدين (٥٤١-٦٦٨ هـ/ ١١٤٦-١٢٦٩ م)

أ. مختار أحمد عفيفي(*) أ.د/ حسين مراد(**) د/ بطل شعبان(***)

مُلخّص:

يرصد هذا البحث دور نصارى المغرب الأقصى في الحياة السياسية والعسكرية في عصر الموحدين ، وهو أحد أهم الأدوار التي لعبها نصارى المغرب الأقصى خلال فترة البحث نتيجة اعتماد بعض خلفاء الدولة الموحدية على العنصر النصراني ، بدعم وتشجيع من البابوية في أوروبا ، وكان لهذا الدور السياسي انعكاس مهم على أحوال النصارى في بلاد المغرب الأقصى خلال العصر الموحدي فكان للنصارى دور مهم في من يتولى العهد الموحدي ، كما كان البعض منهم حجابًا ومنهم من تولى السفارة للدولة الموحدية.

Abstract:

This research monitors the role of the Christians of the far Maghreb in the political and military life in the Almohad era, and it is one of the most important roles that the Christians of the Far Magherb played during the research period.

As a result of the dependence of some of the Almohad caliphs on the Christian element, with the support and encouragement of patriarchy in Europe, this political role had an important reflection on the conditions of Christians in the Far Maghreb during the Almohad era.

(*) باحث دكتوراه – كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

(**) أستاذ التاريخ الإسلامي – كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

(***) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي – كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

مقدمة

عرف المغرب الاسلامي كغيره من الامصار الاسلامية قيام العديد من الدول فكانت الدولة الموحدية(٥٤١-٦٦٨هـ /١١٤٦-١٢٦٩م) من بين الدول التي استطاعت أن تظل المغرب الاسلامي تحت رايتها ، فكان انبعاثها محاولة تاريخية لتوحيد اقطار المغرب و الاندلس لتجسيد هذا الصرح الموحدي على أرض الواقع و قد امتد وجودها أكثر من مائة و خمسون عاماً منذ أن أعلن عن قيامها عبد المؤمن بن علي حين دخل مدينة مراكش عام (٥٤١هـ/١١٤٦م) .

عاش في كنف هذه الدولة مجموعة من الجاليات غير المسلمة المعروفين في ذلك الوقت بأهل الذمة و منهم النصاري الذين كانوا يشكلون أقلية داخل المجتمع الموحدي ، يعرض هذا البحث دوافع الاستقرار النصراني في المغرب الاقصى في العصر الموحدي واسبابه

ترجع أهمية هذه الدراسة أنها تبرز صفحة مهمه من تاريخ المغرب الاقصى في العصر الموحدي من أجل ابراز صفحة من التعايش و التسامح بين المسلمين و أهل الذمة بوجه عام و النصارى بوجه خاص ، كما تهدف هذه الدراسة الي التأكيد على التواجد النصراني في كافة ارجاء المغرب الاقصى و مدنه، أما عن التحديد الزمني للدراس فيبدأ بقيام دولة الموحدين عام (٥٤١هـ/١١٤٦م) و تنتهي بسقوط مراكش على ايدي المرنيين عام(٦٦٨هـ/١٢٦٩م).

تم تقسم البحث الي اربعة مباحث ، المبحث الاول تناول الدوافع التجارية و عرض المبحث الثاني الدوافع العسكرية، و جاء المبحث الثالث بتناول الظروف الاضطرارية و أخيراً المبحث الرابع البعثات أو الارساليات الي بلاد المغرب الاقصى بغرض التنصير .

تعددت دوافع الاستقرار النصراني في المغرب الاقصى في عصر الموحدين فشملت دوافع تجارية و أخري عسكرية بالإضافة الي ظروف اضطرارية كالأسر و النفي و قدم البعض بصورة ودية في بعثات و ارساليات .

[أ] الدوافع التجارية

شهدت بلاد المغرب الأقصى نشاطاً تجارياً ملحوظاً خلال فترة الحكم الموحدى، ونظرا لان هذه المنطقة تشترك كما هو معروف مع بقية بلاد المغرب الإسلاميفي منطقة جغرافية متميزة من موقع، وتضاريس، ومناخ تعد مدخلاً ضرورياً لمعرفة الظاهرة الاقتصادية لأى منطقة[١]، فالمغرب الأقصى يتمتع بسواحل طويلة تمتد على البحر المتوسط واخرى تمتد على المحيط

(١) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي فى المغرب خلال القرن السادس الهجرى، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٣م، ص٣٥.

الأطلسي، مما أتاح لها السيطرةعلى طرق التجارة، وكثير من الموانئ البحرية والتي تعد نقطة لقاء للتجارة الخارجية والداخلية مما شجع التجار النصارى على التوجه إلى تلك الموانئ بغرض التجارة ومنهم من طاب له العيش بها(١)، كما كان لقرب المسافة بين بلاد الأندلس وبلاد المغرب الأقصىأثره في التقارب والتواصل بين المدن النصرانية شمال البحر المتوسط وبلاد المغرب الأقصىوالتي يفصل بينهما مضيق جبل طارق أو بحر الزقاق والذى يتراوح عرضه من اثنى عشر إلى ثمانية عشر ميلاً(٢).وقد شجع قصر المسافة على وفود التجار النصارى من إسبانيا ودول أخرى إلى بلاد المغرب واستقرارها في بعض المناطق، والموانئ الساحلية كمدينة سبته(٣)، وطنجة(٤)، وتطوان(٥)، وغير ذلك من مدن المغرب الأقصى(٦).

وجدير بالذكر أن مناخ الحرية، وحسن سياسة التعامل التي حرص الخلفاء الموحدون على جعلها سُنّة، استقطبت العديد من تجار البلدان النصرانية الذين فضلوا الاستيطان والاستقرار في المدن المغربية الساحلية تسهيلاً لمهامهم باستقبال السفن، ونقل البضائع(٧).

---

(١) مارمول:افريقيا ، ترجمة محمد حجي ، مكتبة المعارف للنشر ، الرباط ، المغرب ،١٩٨٤م ،ج٢،ص٧٨.

(٢)البكرى: مصدر سابق، ص ١١٩؛ الادريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الافاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م،مج١، ص١٠؛.

(٣) سبتة: مدينة عظيمة على البحر المتوسط، تقابل الجزيرة الخضراء، ليس لها إلا البر غير طريق واحد من جهة الغرب، لذا هي حصينة جداً، مرساها من أجود المراسي.
ينظر: الحميري: الروض المعطار فى خبر الاقطار، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥ ،ج٣، ص١٨٢.

(٤) طنجة: مدينة قديمة أزلية، تقع على جبل مطل على البحر، مدينة حسنة بها أسواق وصناع، وبها إنشاء المراكب والقلاع، فيها زارع وغلات، سكانها بربر ينتسبون إلى صنهاجة.
ينظر: الشريف الإدريس: نزهة المشتاق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مج٢، ص٥٢٢.

(٥) تطوان: تسمى تطاوين، معناها العين الواحدة، تقع على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً من مضيق جبل طارق، وعلى بعد حوالي ستة أميال من البحر المتوسط.
ينظر حسن الوزان: وصف أفريقيا،ترجمة محمد حجى ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ١٩٨٣م ، ج١، ص٣١٨.

(٦) مريم محمد عبد الله جبوده: التجارة فى بلاد أفريقية وطرابلس الغرب، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٨م، ص٢٠.

(٧)إبراهيم القادرى بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٤، ص٨٩.

كما اتخذ الموحدون التدابير اللازمة لحفظ الأمن وتحقيق الاستقرار داخل البلاد وذلك بالقضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية، والعمل على سلامة التجار والتجارة فى البحر المتوسط بمقاومة القرصنة البحرية والحد من غاراتهم(١)،فقد ساعدت هذه الامور على استقطاب العديد من التجار النصارى إلى بلاد المغرب الأقصى والاستقرار بها بعد ان تحقق الأمن والامان بها، كما ان إحكام الموحدين قبضتهم على طرق التجارة البرية والعبارة للصحراء يعد أيضاً من الدوافع التجارية التى شجعت التجار النصارى على التقاطر نحو مدن بلاد المغرب الأقصى، فقد حقق الموحدون بذلك انفتاحاًمهماً على العالم المتوسطى، مما أعان على قيامهم بدور الوسيط التجارى الذى أصبحوا يضطلعون به، كل ذلك يشير إلى حرص الموحدين بهذه السياسة على توطيد علاقاتهم بالدول النصرانية؛ ونتيجة لذلك توافد العديد من التجار النصارى إلى الموانئ المغربية(٢).

تزامن مع هذا أيضاً حرص الدول النصرانية التجارية على اللحاق بركاب عصر النهضة خلال القرنيين (٦-٧هـ/ ١٢-١٣م) الذى كان يمثل حركة مجتمعية شاملة فى الاقتصاد والسياسة والثقافة والفنون وكانت البرجوازية المتوسطية تتطلع فى هذه المرحلة نحو بسط نفوذها وسلطانها فأخذت السفن الإيطالية التجارية تجوب مياه البحر المتوسط محملة ببضائع ومنتجات الدول المتوسطية، وتعد بلاد المغرب الأقصى من الأسواق المهمة لكونها أقرب المناطق إلى المدن المتوسطية، كما تعد البوابة أو المنفذ لمرور المنتجات المتوسطية إلى باقى بلاد المغرب الأقصى ودول أفريقيا.فضلاً عن وقوع دول المغرب على طريق الذهب مما شجع التجار النصارى على التوجه نحو بلاد المغرب الأقصى والاستقرار بها(٣).

وقد تعزز هذا الدافع التجاري بفضل تنظيم العلاقة بين التجار النصارى والمغاربة؛ مما شجع التجار النصارى على الاستقرار ببلاد المغرب، فقد حرصت الجمهوريات التي ينتمون إليها على عقد معاهدات تجارية مع المغرب الأقصى، ففي سنة (٥٨١هـ/ ١١٨٦م) عقدت جمهورية بيزة معاهدة للتجارة والسلم مع الخليفة الموحدي "أبي يوسف يعقوب المنصور" (٥٨٠-٥٩٥هـ/

(١) البكرى: المسالك و الممالك ،تحقيق جمال طلبه دار الكتب العلمية ،بيروت ،٢٠٠٣م، ص٥٧.

(٢) إبراهيم القادرى بوتشيش: مرجع سابق، ص ٨٩.

(٣)ابراهيم القادرى بوتشيش:المرجع نفسه، ص٩٠.

١١٨٤-١١٩٨م) لمدة ٢٥ سنة تضمنت منح الحرية الكاملة لتجار بيزة في كل مدن "سبته، ووهران، وتونس"(١).

ومما شجع أو دفع التجار النصارى على الاستقرار المغرب الأقصى هو سهولة الاتصال بالخليفة الموحدي، فلم يجد هؤلاء التجار أدنى حرج في ذلك لتذليل كل ما يعترض نشاطهم التجاري من صعوبات، يؤيد ذلك الرسالة التي بعثها قنصلهم إلى الخليفة "أبي يوسف يعقوب" بتاريخ (٥٨١هـ/ ١١٨١م) حول الصعوبات التي أعاقت عدداً من التجار من أجل استخلاص جلود من "بجاية"، واستجاب المسؤولون المغاربة حيث إنهم لم يديروا ظهورهم لهذه النداءات، وقد ساهمت الكنيسة بنشاطها فكانت ترعى هذه المصالح التجارية وتباركها، فبعثت بأساقفتها وقسيسيها إلى مختلف المدن المغربية لتنظيم حياة التجار الدينية، فكان ذلك أساساً في استقرار النصارى بالمغرب الأقصى(٢).

يتضح مما سبق أن العامل أو الدافع التجارى يعد أهم عوامل وجود النصارى واستقرارهم بالمغرب الأقصى، فقد تعددت الأسباب وتهيأت الطرق لقيام هذا العامل بدوره، فالموقع الجغرافى لبلاد المغرب الأقصى ومدن وموانئ الدول النصرانية مناسبا ومشجعا لوجود التجار النصارى بالمغرب، حيث يقع كل منهما على ضفتى البحر المتوسط الفاصل بينهما والذى يعد أداة ربط وتواصل بين الجانبين، وضيق المسافة بين دولة إسبانيا وبلاد المغرب الأقصى شجع الكثيرين من النصارى على العبور إلى مدن وموانئ المغرب عبر مضيق جبل طارق بغرض التجارة، كما حرص الموحدون على تحقيق الأمن الداخلى للبلاد فالأمن يولد الاستقرار ويجعل التاجر آمنا على رأس ماله وتجارته، لذلك اهتم الموحدون بالقضاء على الفتن والاضطرابات، وعملوا على مقاومة القرصنة البحرية بعقد المعاهدات التى تضمن حرية الملاحة ومعاقبة القراصنة، فشجع ذلك على تدفق التجار النصارى إلى المغرب الأقصى ومزاولة نشاطهم التجارى.

وهناك عوامل أخرى ساهمت فى وجود النصارى واستقرارهم بالمغرب الأقصىإبان الحكم الموحدى.

[ب] الدافع العسكرى

أدرك الموحدون منذ قيام دولتهم بقيادة مؤسسها الخليفة "عبد المؤمن بن علي"(٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٢٩-١١٦٢م) أن أمنهم يكمن فى تكوين جيش قوى للحفاظ على أمن دولتهم

(١) بوتشيش: مرجع سابق، ص٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٩٥.

المهددة خارجياً،وحمايتها داخلياً من الصراعات والفتن وتمردات القبائل المغربية المعارضة للحكم، لذلك اهتمت السلطة الحاكمة بتوفير كل المستلزمات من مال وجهد، وتدريب وتسليح، كى تنهض البلاد فى ظل جيش قوى يحقق الأمن والأمان، ولهذا كان الخليفة عبد المؤمن بن على يشرف بنفسه على الادارة العسكرية(١).

ومما لا شك فيه أن النصارى شكلوا شريحة سكانية مهمة جنباً إلى جنب مع القبائل العربية والأفريقية، وسكنوا العديد من مدن المغرب العربى عامة والمغرب الأقصى خاصة، وأن بعضهم كان جزءاً من البلاد المفتوحة حربا والبعض الآخر من أسرى الحروب، لذلك من الطبيعى أن يضم الجيش المرابطى ومن بعده الجيش الموحدى بقايا منهم إلى جانب العرب و الغز و الاندلسيين(٢)ويشير صاحب الحلل الموشية إلى أن أمير المسلمين "علي بن يوسف بن تاشفين" المرابطى(٥٠٠-٥٣٧هـ/ ١١٠٦-١١٤٣م) يعد أول من استخدم النصارى أجناداً وحراساً خصوصيين له، مما يدل على أن مسألة جلب العناصر المرتزقة لحماية الأسرة الحاكمة ليست مسألة مستحدثة وإنما ظهرت منذ العصر المرابطي(٣).

تزايد أعداد النصارى بالجيش المرابطى وشكلوا اكثر من فرقة من المرتزقة وكان لهذه الفرق دوراًمهماً فى المعارك التى كانت تضطرم بين المرابطين والموحدين وقد عهد بقيادة هذه الفرق النصرانية إلى فارس قسطلانى يدعى "الربرتير"، الذى ظل يحارب الموحدين بمهارة وشجاعة إلى ان قتله الموحدون فى احدى المعارك(٤).

قام عبد المؤمن بن علي عقب انهيار دولة المرابطين سنة(٥٤١هـ/ ١١٤٦م) بضم الفرق النصرانية العاملة فى الجيش المرابطى إلى صفوف جيش الموحدين فزاد بهم عدد الجيش بغرض

---

(١)خوسي اليماني: تفاعل المسيحيين مع المؤسسة العسكرية في بلاد المغرب والأندلس، مجلة الأستاذ، العدد ٢٢، مج١، ٢٠١٧م، ص٢٤٥.

(٢)المراكشى: المعجب فى تلخيص اخبار المغرب، الدار البيضاء – المغرب، ط٧، ١٩٧٨م، ص ٣٤؛المرجع السابق، ص٢٤٣.

(٣)مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص٩٠.

(٤)البيذق:ابو بكر بن على الصنهارى ، اخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ،، المطبعة الملكية ، الرياض ، ١٩٧٤م ، ص٨٦-٩٦؛ ابن عذارى: البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧م، ج٤، ص ٩٨؛ ابن القطان: نظم الجمان فى اخبار الزمان، الرباط،المغرب ، ١٩٦٤م، ص ٩٦.

الاستفادة من مهارتهم وخبراتهم العسكرية ولم يجد عبد المؤمن فى ذلك حرجاً[١]، خاصة أن الأمر لم يكن مستحدثاً كما ذكرنا.

يتضح مما سبق أن الدافع العسكرى وراء حرص عبد المؤمن بن علي على بقاء النصارى المرتزقة وضمهم إلى جيش الموحدين، حيث ورث عبد المؤمن تركة مثقلة بعد وفاة المهدى فاتجه إلى بناء جيش قوى ليتمكن من القضاء على الخلافات حيث ارتدت بعض القبائل إثر وفاة المهدى، فبدأ ينظم شؤون الموحدين، ويحشد جموعهم ويستنفرهم للجهاد[٢]،

ويستشف من هذا أيضاً الكفاءة القتالية والحربية للنصارى والتي جعلت عبد المؤمن بن علي يحرص على ضمهم لصفوف الجيش الموحدي.

وبالرغم من ذلك نرى أن هناك بعض الأقوال التي صدرت عن الخليفة "عبد المؤمن بن علي"(ت٥٨٨هـ/ ١١٦٢م) تشير إلى قلة توافد النصارى فى عهده، ومن هذه الأقوال:

- أن الخليفة عبد المؤمن بن علي نادى في أنحاء مملكته بإخراج اليهود والنصارى، وقدر لهم مدة معينة، من أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين،ومن بقي على ملته ولم يخرج بعد الأجل فهو في حكم السلطان مستهلك النفس والمال، فخرج المخفون، وبقي من ثقل ظهره[٣].
- كما ورد ببعض المصادر والمراجع أن الخليفة عبد المؤمن لما دخل "المهدية" وجد بها النصارى فطلبوا منه الأمان لأنفسهم وأموالهم أو السماح لهم بالخروج منها، لكن الخليفة الموحدي عرض عليهم الإسلام لكنهم فضلوا الرحيل[٤].
- وفي مراكش التي وجد بها أيضاً نصارى، عرض عليهم عبد المؤمن الإسلام، وقال لهم إن الإمام "المهدي" أمرني أن لا أقر الناس إلا على ملة واحدة وهي الإسلام[٥].

---

(١)ابن الاثير: الكامل فى التاريخ، بيروت، ١٩٦٦م، ج١٠، ص ٥٨٤.

(٢)ابن القطان: المصدر السابق، ص١٦٨، ص٢١٠.

(٣)ابن القطى "جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى" (٥٦٨-٦٤٦هـ/ ١١٧٢-١٢٤٨م):إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٢١؛ شريف عبد القادر: النصارى ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي (٢١-٦٤١هـ/ ٦٦٨-١٢٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، ٢٠١١م، ص٤١.

(٤) مؤلف المجهول: الحلل الموشية، ص١٥٤؛ سمية سعادة: أهل الذمة في العهد الموحدي، رسالة ماجستير منشورة، الجزائر، ص٤٧-٤٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ذكر ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، مصر، ٢٠١٦م، ج٥، ص٢٧١.

- ومما يؤثر عن "عبد المؤمن" قوله لليهود والنصارى "لا حاجة لنا بجزيتكم فإما الإسلام أو القتل"(١).
- كما قال روبار برنشفيك "... وقد قضى في نفس الوقت بحد السيف على بقايا الطوائف النصرانية التي بقيت من بين أهالي البلاد كما سلط أبشع وسائل القمع على أغلبية طوائف اليهود"(٢).

وباستقراء المصادر والمراجع المتاحة،يمكن تفسير أسباب سلوك "عبد المؤمن بن علي" تجاه النصارى فيما يلي:

- تأثُر"عبد المؤمن بن علي" بمعلمه ورائده وقائده محمد بن تومرت زعيم الموحدين، حين رأى كثرة أتباع المهدى بن تومرت وأشياعه، وأنطاعتهم له تزداد، وفتنتهم به تشتد، وتعظيمهم له يقوى حتى بلغوا فى ذلك حداً لو أنه "أمر أحدهم بقتل ابنه أو أخيه أو أبيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء"، فقد كفَّر كل من لا يؤمن بعقيدته، فمن لم يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته(٣).
- وبهذا ألقى ابن تومرت فى نفوس أصحابه انهم المؤمنون حقا وسواهم الكافرون وبذلك انقسم المجتمع إلى "مؤمنين" و" كافرين"، وأكد فى نفوس أتباعه النفور من المجتمع(٤)، ومن ثمَّ فإذا كان عبد المؤمن قد رأى تصرفات قائده هذه ومعاملته للمسلمين، فكيف ستكون معاملته لغير المسلم؟ وبالتالي نرجح تأثر عبد المؤمن بأستاذه في معاملته لغير المسلمين، ومنهم النصارى.

فضلاً عما سبق نرجح أن الدافع وراء كلام عبد المؤمن بن على للنصاربهو ترهيبهم ودفعهم إلي اعتناق الإسلام، خاصة بعد أن رأى القائد النصرانى "روبرتير Roparter" الذى

(١) هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ص٢٢.

(٢) تاريخ أفريقية في العهد الحفصي من (القرن ١٣م إلى نهاية القرن ١٥م)، ج١، ص٣٣.

(٣) المهدى ابن تومرت: اعز ما يطلب، تحقيق عمار الطالبى، الجزائر، ١٩٨٥م، ص ٢٥٠، القطان: نظم الجمان، الرباط، ص٨٥، ابن ابى زرع: الانيس المطرب، ص ١٧٧، عبد المحسن رمضان: تاريخ الاندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، ٢٠٠٩م، ص١٧٣.

(٤) المهدى ابن تومرت:المصدر السابق ص ٢٥٠؛ القطان:المصدر السابق، ص٨٥؛ ابن ابى زرع:المصدر السابق، ص ١٧٧؛ عبد المحسن رمضان: مرجع سابق، ص١٧٣.

تولى قيادة الجيش المرابطى لإخماد ثورة الموحدين[١]، وقد أظهر شجاعة وإخلاصاً وبراعة فى فنون القتال ثم توج هذه الصفات باعتناقه الإسلام مما اضفى على شخصه وقاراً وهيبةإلا أنه قتل في إحدي المعارك وذلك عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) وكان مصرعه ضربة شديدة للجيش المرابطى[٢].

يضاف إلى ما سبق أيضاً أن من أسباب سلوك عبد المؤمن تجاه النصارى نظرته للنصارى المرتزقة، فعندما عزم عبد المؤمن بن على دخول مراكش عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) ضرب حصاراً حولها، وطال على المرابطين واشتد الجهد بهم ومن معهم من عسكر النصارى، حيث اتضح لهم أن شجرة المرابطين أوشكت على السقوط وتناثرت أوراقها وتكسرت أغصانها ونفرت الأرض بجذورها، مما دفعهم لمداخلة عبد المؤمن

بن على أن يسهلوا له دخوله مراكش العاصمة مقابل أن ينقذهم من هلاك الحصار وتم ذلك، وتخلى النصارى عن حلفائهم المرابطين بميدان القتال[٣].

ويرجح من هذا أن سلوك النصارى المرابطين تسبب في شك عبد المؤمن بن علي في ولاء النصارى له، وقد تكون نظرته إليهم باعتبارهم مرتزقة لا أمان لهم ولا ثقة فيهم، إن أعطيتهم المال وقفوا معك وساندوك وان امتنعت عنهم تخلوا عنك أو انقلبوا عليك، وقد يكون ذلك وراء أقواله.

ورغم تلك الأقوال هناك صعوبة في قبول الزعم القائل بأن أهل الذمة من اليهود والنصارى انعدم وجودهم في بلاد المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، فالمصدر صاحب رواية تخيير أهل الذمة بين الإسلام أو القتل أو الرحيل مصدر مشرقي ولا نجد ذكراً لهذه الرواية خاصة في المصادر المغربية التي عاصرت عبد المؤمن بن علي مثل صاحب الاستبصار أو صاحب المعجب، وصاحب البيان المغرب وأيضاً لا نعثر على هذا الخبر في مؤلفات ابن الخطيب، وابن خلدون، فالمنطق لا يقر هذه الرواية، يدعم ذلك أنه عقب انهيار دولة المرابطين قام بضم النصارى العاملين فى جيش المرابطين إلى صفوف الموحدين فزاد بهم الجيش الموحدى، ولم يجد

---

(١) ابن القطان: نظم الجمان، ص ٢١٢-٢١٤، ينظر، البيدق: اخبار المهدى ابن تومرت، ص ٥٧، ينظر، هوبكنز: مرجع سابق، ص٦٧.

(٢) محمدعبد الله عنان:دولة الاسلام فى الاندلس، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس،مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص٢٤٨، ٢٤٩؛على محمد الصلابى: صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الافريقى، دولة الموحدين، ص ١١١.

(٣)مؤلف مجهول: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية، دار الارشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٠،ص ١٣٨؛عبد الله عنان: مصدر سابق، ص٢٦٣.

عبد المؤمن فى ذلك حرجاً[١]، وقد سهل النصارى له دخول مدينة مراكش عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) كما سبق ذكره كما استعان بهم أيضاً فى اخماد الثورة التى قام بها محمد بن عبد الله بن هود الماسى (في غرة شوال من عام ٥٤١هـ)[*]، وذلك بقيادة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتى،

وقتل ابن هود وأغلب عساكره في هذه المعركة في ١٦ من شهر ذي الحجة عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦)[٢].

جنحت السياسة الموحدية من بعد عبد المؤمن إلى نوع من الاعتدال والتسامح، فترك للنصارى حرية العيش فى البلاد الموحدية[٣]، يتضح ذلك حين توافدت أعداد كثيرة من النصارى إلى بلاد المغرب الأقصى فى عهد الخليفة الموحدى أبييعقوب يوسف بن عبدالمؤمن عام (٥٥٨-٥٨٠هـ/ ١١٦٢-١١٨٤م) حيث أمر هذا الخليفة بضم الفارس النصرانى جيرالدو سميافو ومعه مجموعة من الفرسان النصارى، وقد أمر بنقلهم إلى مراكش العاصمة عام (٥٦٩هـ/ ١١٧٧م)، وتم تعينيه قائداً للنصارى المرتزقة العاملين بالجيش الموحدى بمنطقة السوس الأقصى[*][٤].

---

(١)ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠،ص ٥٨٤، مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص ١٣٨.

(*) محمد بن عبد الله بن هود الماسي: هو ثائر مغربي أصله من سلا كان يعمل قصار على ضفة بحر سلا، وكان أبوه دلالاً بالسوق، لحق بالخليفة عبد المؤمن عندما ظهر وبايعه وشهد معه دخول مراكش (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)، ادعى الهداية (في غرة شهر شوال من عام ٥٤١هـ) وسمى نفسه بالهادي، واستقر برباط ماسه، ناصره أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة وتاسمنا وهواره، وعمل على نشر دعوته في جميع المغرب مما دفع عبد المؤمن إلى إرسال جيش لقتاله، وكانت الجنود النصارى من العناصر المشاركة، انتهت المواجهة بمقتل بن هود في شهر ذي الحجة عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م). =

=ينظر: ابن عذارى: مصدر سابق، ص٣٠، ٣١.

(٢)ابن عذارى المراكشي:المصدر السابق، ص٣١، مؤلف مجهول:الحلل الموشية، ص١٤٦، مجلة الاستاذ، العدد ٢٢، المجلد الاول لسنة (١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م)، ص٢٤٨.

(٣)عبد الله عنان:مرجع سابق قسم الموحدين، ص٢٣٥.

(*) السوس الأقصى: منطقة تقع جنوب المغرب الأقصى، كانت تسمى في العصر الروماني "قمونية" ويقال أن العرب عند وصولهم إلى هذه المنطقة أطلقوا عليها "سوس" وهي منطقة خصبة، ويقول "ياقوت" أن السوس تحريف لكلمة "الشوش" وهي كلمة فارسية تعني الحسن والطيب.

ينظر: الحميري: الروض المعطار في خير الأقطار، بيروت، ١٩٧٥م، ص٣٢٩.

(٤)البيدق: مصدر سابق، ص١٦٧.

واقترنت أول إشارة لظهور كتائب عسكرية من البلدان النصرانية في الجيش الموحدي بعهد الخليفة "أبي يوسف يعقوب المنصور" (٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م)، والذى شيد لهم قصورًا – اختلفت الروايات فى عددها – وسكن فيها الكثير من جند الروم الذين بلغ عددهم الآلاف بالإضافة إلى نسائهم وأطفالهم الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف والراجح أنه استعملهم كحرس خاص، لا كجند نظامي مادام الهدوء والأمن هو الجو المخيم في عهده(١).

وفي عهد الخليفة المستنصر (٦١٠-٦٢٠هـ/ ١٢١٣-١١٢٣م) وهو العصر الذي اقترن ببداية الأزمة الموحدية بعد معركة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) تزايدات الكتائب العسكرية النصرانية، وكانت مكونة من مجموعتين، الأولى تحت قيادة أمير برتغالى بمراكش والثانية فى مدينة مكناس تحت إمرة قائد قشتالى اعتنق الإسلام (ابن أخت الفونسو(*))، ويعرف أيضاً باسم " كونسالفو"(**)(٢)، يتضح من ذلك مدى مساهمة العامل أو الدافع العسكري في استقرار النصارى في بلاد المغرب الأقصى.

وفي عهد الخليفة المأمون (٦٢٤-٦٣٠هـ/ ١٢٢٧-١٢٣٢م) كان للدافع العسكري دوراً بارزاً في استقرار النصارى بالمغرب الأقصى، فقد تكررت الأزمات حتى أصبح عهده مفعماً

---

(١)ابن ابى زرع " أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى" : روض القرطاس، ص ٣٢٨، الحسن الوزان: مصدر سابق، ج ١، ص٣٢٨، مارمول: وصف افريقيا، ج٢، ص ١٠٥.

(*) ألفونسو أو الادفنش أو ألاذفونش هو لقب لملوك إسبانيا ، وقد يقال الفنش، فأبي خلكان يذكر أن الانفوشي هو اسم لأكبر ملوك الفرنج وهو صاحب طليطة، أما ابن خلدون فيذكر أن انفونش هم ولد ابن بطرة أول ملوك الجلالقة، أما قولهم الفونش فهو اسم علم لبعض ملوكهم وليس لقباً لجميعهم.
ينظر: ابن خلكان وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ،١٩٤٨م ج٧ ، صـ١٩ ؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر،مؤسسة الاعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٧١م ، ج٤، ص١٧٩.

(**)كونسالفو: شخصية من أسرة ملكية إسبانية، وقد اعتنق الدين الإسلامى وعرف باسم أبي زكريا يحيى، كما يعرف أيضاً باسم "ابن أخت ألفونسو"، ومن أعماله أنه شيد بمدينة مكناس حماماً عظيم البناء، كان ذلك فى أوائل القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر ميلادى، وقد عين قائداً لفرسان الدولة الذين يحولون دون حصول حوادث السلب التى يقترفها البدو والرحل، كان خيراً من المسلمين الأتقياء، يرتدى الزى المألوف عند الموحدين، كان حياً فى مدينة سبتة عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٦م.
ـ ينظر رضوان البارودي اضواء على المسيحية والمسيحيين فى المغرب فى العصر الاسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص١٢٠

(٢) بوتشيش: مرجع سابق، ص٩٠.

بالاضطرابات السياسية نتيجة الصراع بين الأمراء الموحدين على السلطة كالصراع الذى اشتعلت نيرانه بين الخليفة المأمون (٦٢٤-٦٣٠هـ/ ١٢٢٧-١٢٣٢م) وابن أخيه يحيى بن الناصر، فمن المعروف أن المأمونبويع بالخلافة فى إشبيلية بالأندلس، فى حين بويع ليحيى بن الناصر بالخلافة فى مراكش فى نفس العام (٦٢٤هـ-١٢٢٧م) ومن ثم دب النزاع بينهما، مما دفع الخليفة المأمون لطلب المساعدة العسكرية من فرناندو الثالث ملك قشتاله، وبالفعل أمده فرناندو بقوة عسكرية من النصارى،واختلفت الروايات فى عدد هؤلاء الجند النصارى، حيث حصرهم ابن عذارى، كان (حياً عام٧١٢هـ/ ١٣١٢م)فى خمسمائة فارس بينما أحصاهم كل من أبي زرع (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) وأحمد بن خالد السلاوى (ت١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) باثني عشر الف فارس(١).

تعددت آراء المؤرخين حول عدد القوة التى أرسلها "فرنادو الثالث" إلى "المأمون" الموحدي، فمنهم من يميل إلى الاعتقاد أن الاثنا عشر ألف فارس هو الأقرب إلى الصحة مستنداً فى ذلك إلى أن ابن أبى زرع فى وصفه بيعة الخليفة الموحدى عبد الواحد الرشيد (٦٢٩-٦٤٠هـ/ ١٢٣١-١٢٤٠م) ذكر أن "قائد الروم كان يركب فى عشرة آلاف من إخوانه "فمن المحتمل أن يكون عدد الجيش النصرانى قد انخفض من اثنى عشر الف إلى عشرة آلاف جندى خلال الفترة الفاصلة بين الخليفتين، كما أن حملة تستهدف إعادة عرش البلاد واستعادة السلطة يجوز لها أن تستقدم هذا العدد لأهمية الحدث وخطورة الموقف، ثم إن العدد الموجود فى عهد يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٨م) وصل إلى الألف جندى نصرانى فى جو ساده الأمن والرخاء فكيف بالنسبة لخليفة اصبح عهده يتسع فيه الخرق علي الراقع(٢).

ومن المؤرخين من شكك فيما ذكره ابن أبي زرع، فرأى أنه ليس من المستبعد أن يكون وراء العدد الذى قدمه ابن أبى زرع شيء من المبالغة أو التضخيم – فلربما –من موقعه كمؤرخ للبلاط المرينى " رام أو أراد من خلال التضخيم فى العدد الذى استجاش به المأمون الموحدى من النصارى لمواجهة المسلمين، وبأرض تابعة لدار الإسلام،التأكيد على سقوط الحكام الموحدين فى

(١) ابن عذارى "أبو العباس أحمد بن محمد المراكشى" (ت بعد ٧١٢هـ/ ١٣١٢م): البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م، ج٤، ص٢٨٤؛ ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص١٦٧؛ الناصرى: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى: مطبعة دار الكتب ، الدار البيضاء ، ١٩٩٥٤ ، ج١، ص ١٩٩.

(٢)إبراهيم القادرى بوتشيش: المرجع السابق، ص٩١.

المحرم، ويمكن أن نستأنس اكثر بالرقم الذى قدمه ابن عذارى بالنظر إلى ماكان يثيره نقل عدد مرتفع من المرتزقه النصارى إلى المغرب لدى المغاربة المسلمين من حساسية(١).

ويذكر الدكتور محمد عبد الله عنان أن المأمون الموحدى لم يرد العودة إلى مراكش دون قوة عسكرية تكفل له النجاح والتفوق على خصمه، فيبدو أنه تفقد قواته فتبين له تعذر تغلبه على يحيى بن الناصر نظراً لقلة عدد أتباعه، فلجأ إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة يلتمس منه المساعدة بفرقة من الجند النصارى تعبر معه إلى المغرب ووافق ملك قشتالة بشروط التزم بها المأمون الموحدى، فبعث إليه فرناندو بجيشٍ كثيف من اثنى عشر ألف فارس من النصارى(٢).

ويؤكد الدكتور عنان أن هذا الرأي يحوي مبالغة،فليس من المعقول أن يعير ملك قشتالة مثل هذا العدد الضخم من فرسانه إلى الخليفة الموحدى، والجيش القشتالى كله لم يكن يضم فى كثير من مواقعه الضخمة أكثر من هذا العدد من الفرسان(٣).

يبدو من ذلك أن عبد الله عنان اتفق مع ما أورده ابن عذاري الذى قال مشيرا إلى عزم المأمون على الجواز إلى العدوة " فحشد الحشود ورمم الجنود، وجمع نحو خمسمائة فارس من الروم" كما سبق ذكره.

وقد أدلى ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) بدلوه فى هذا الشأن حيث اكتفى أن يوصف هذه القوة التى أمد بها ملك قشتالة الخليفة المأمون بأنها "جمع من الفرسان الروم"(٤).

استعرض الباحث فيما سبق آراء بعض المؤرخين فى عدد الجنود النصارى الذى بعث به فرناندو الثالث إلى المأمون الموحدى، فالذى قال إن العدد بلغ اثني عشر ألف جندى نصرانى اتضح أنه عدد مبالغ فيه وضخم أراد بذلك أن يقلل من شأن الموحدين بأن المأمون الموحدى

---

(١)محمد حمام: الغرب الإسلامى والغرب المسيحى خلال القرون الوسطى،الهلال العربية للطباعة، الرباط،١٩٧٠م، ط١، ص١٢٠، مجلة الاستاذ: تفاعل المسيحيين مع المؤسسة العسكرية، العدد ٢٢، المجلد الاول٢٠١٧م، ص٢٤٦.

(٢)من هذه الشروط "أن يأخذ فرناندو الثالث عشرة حصون مما يلى بلاده يختارها بنفسه، وعند دخول المأمون مراكش منتصراً عليه أن يبنى للنصارى الذين معه كنيسة وإن أسلم أحد من النصارى لا يقبل إسلامه، ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بحكمهم ومن تنصر من المسلمين فليس لأحد عليه من سبيل،وقد وافق المأمون على هذه الشروط. ينظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٦١؛ ينظر هوبكنز :مرجع سابق ،ص١٤٤

(٣)دولة الإسلام، قسم الموحدين، ص٢٦٩.

(٤)الاحاطة فى اخبار غرناطة،دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥م ج١، ص٩٨، محمد حمام: المرجع السابق، ص ١٢٠.

استجاش هذا العدد من المرتزقة النصارى لمواجهة المسلمين على ارض المسلمين، وهذا دليل على سقوط الموحدين فى المحرم، ويفهم من ذلك أن عدد الاثنا عشر ألف جندي ليس هو العدد الحقيقى، والفريق الآخر الذى قال أن عدد الجند النصارى خمسمائة جندى قال ذلك بغرض الحرص على مشاعر المسلمين المغاربة، لأن الأعداد الكبيرة من النصارى تثير لدى المسلمين حساسية، يفهم من ذلك أيضاً أن عدد الخمسمائة جندى غير صحيح، لأنه لم يكن كافياً لإنجاز المهمة التي طلبوا لأجلها.

نخلص من ذلك أن هذه الأعداد تقريبية وغير صحيحة أو غير دقيقة، ويرجح أنها استخدمت فى غير موضعها حيث استخدمها ابن أبي زرع كحرب نفسية وتحريض ضد الموحدين ويجامل بها المرنيين، بأن المأمون وقع فى المحرم عند استقدامه للجند النصارى لمحاربة المسلمين في أرضهم بأرض المسلمين لمحاربة المسلمين.

ويرجح الباحث أن رأي المراكشي يرجع إلى غيرته على دينه الإسلامي وتحيزه إلى أهله المسلمين بمراكش لانتمائه إليهم، فيقال أنه مراكشياً وإن كان أصله الأول أندلسياً، عاصر أواخر دولة الموحدين حتى سقوطها عام (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) حيث عاش أوائل القرن الثامن الهجري وأدرك العقد الثاني فيه(١).

إن مثل هذه الأمور ينبغى أن يسبقها اتصالات ومناقشات ومفاوضات ثم إبرام الاتفاقيات بين الطرفين، وعماد هذه المفاوضات هى المصلحة فكل طرف يراعى مصلحته فى هذه الاتفاقية ويتم وضع الشروط اللازمة على أن تكون ملزمة للطرفين، والتاريخ غنى بمثل هذه المواقف، فقد رأى المأمون الموحدى بعد أن ترك بأشبيلية، وباقى القواعد الأندلسية الباقية على طاعته بعض الحاميات الضئيلة(٢)،أنه فى حاجة إلى عدد معين من الفرسان النصارى بالإضافة إلى ماعنده من قوات من الموحدين والعرب والقشتاليين(٣)، وتم الاتفاق بين المأمون الموحدى وفرناندو الثالث على العدد المطلوب من الفرسان النصارى، ولكن لم نستدل في المصادر والمراجع المتاحةعلى العدد الحقيقى للجند النصارى، كما لم نستدل على حضور أحد من المؤرخين(*)، المفاوضات

(١)ينظر "المراكشي: البيان المغرب، ط١، ١٩٨٥م، ج١، ص٧".

(٢)عبد الله عنان:مرجع سابق، ص٣٦٩.

(٣)عبد الواحد المراكشى : مصدر سابق ، ط٧ ، ١٩٧٨م ، ص ٣٤.

(*) ابن صاحب الصلاة (كان حياً عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م)، البيدق (توفي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، المراكشي صاحب المعجب (ت٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، ابن عذاري (كان حياً عام ٧١٢هـ/

التى تمت بين الطرفين الموحدى والقشتالى بخصوص عدد الجنود النصارى الذى استعان به المأمونالموحدى، مما يؤكد أن هذه الأعداد ليست دقيقة وأنها تقريبية فمن قال أنها خمسمائة أو أكثر لم يرى بنفسه هذه القوة من الجنود، وبالتالي يصعب تأكده من صحة العدد المذكور، وقد حدث ذلك حين أمر الخليفة عبدالمؤمن ببناء الأساطيل التي بلغ عددها مائتي قطعة يقول ابن صاحب الصلاة وقفت عليها وعددتها بالمرسي(١).

وعندما نتأمل ما ذكره ابن خلدون حين علل وجود المرتزقة النصارى بالجيش المغربى بخصوصية أسلوبهم ونظامهم الدقيق في خوض المعارك، لأن قتال القبائل المغربية يعتمد على الكر والفر، نجده لم يتحدث مطلقاً عن العدد المستجلب منهم(٢).

يتضح من خلال ما أورده ابن خلدون بأن العبرة ليست بالعدد وإنما العبرة بالخبرة وإتقان العمل أو الفعل، فقد رأى المأمون الموحدى أن جيشه رغم كثرة عدده إلا أنه يفتقد أو ينقصه بعض فنون القتال المتوفرة لدى المرتزقة النصارى مما دفعه للاستعانة بعدد منهم فى محنته ومعركته الشرسة المقبل عليها لاسترداد ملكه وسلطانه من يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين، والانتقام من الناكثين الذين أظهروا عليه العناد ونقضوا الوعود والعهود، وقاتلوه بشراسة بالغة وقتلوا أخوته وأعمامه(٣).

وقد أصاب لسان الدين بن الخطيب عند وصفه لهذه القوة التى أمد بها ملك قشتالة الخليفة المأمون " بأنها جمع من فرسان الروم"(٤). ولم يقحم نفسه فى عدد هؤلاء الفرسان الروم إن كان اثنا عشر ألف فارس أو أقل كما سبق ذكره.

كما أن "هوبكنز" لم يتعرض إلى عدد هذه الفرقة النصرانية، إذ كان خمسمائة جندي نصراني أو أكثر من ذلك، حين يقول: "... في الواقع يواجه "المأمون" صعوبات حينما عبر بحر

١٣١٢م)، ابن أبي زرع (كان حياً عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٠م)، ولسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م).

(١)تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوراثيين،تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٣،١٩٨٧،ص ١٤٧.

(٢) المقدمة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ج٦، ص ٧٢٠، هوبكنز :مرجع سابق، ١٩٨٠م ، ص١٤٤.

(٣) ابن عذارى المراكشى:مصدر سابق، قسم الموحدين، ص٢٩٢، عبد الله عنان:مرجع سابق، ص٣٦٢.

(٤)لإحاطة، ج١، ص٩٨.

الزقاق للاستيلاء على عاصمته، فلا عجب إذن أن يكون قد اصطحب معه إلى المغرب الأقصى في سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) فرقة من النصارى زوده بها فعلا فرناندو الثالث"[١].

بعد وفاة الخليفة المأمون بن المنصور عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) بويع بالخلافة ابنه عبد الواحد الملقب بالرشيد عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) وكان الذين اخذوا له البيعة كانون بن جرمون السفيانى وشعيب بن أوقاريط الهسكورى وفرنسيل قائد جيش الروم، فقد استدعت زوجة المأمون وأم الرشيد هؤلاء النفر الثلاثة وكانوا أعمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم فى ازيد من عشرة آلاف من قومه وأعوانه[٢]،حيث أشار ابن أبي زرع عند بيعة الرشيد إلى أن قائد الروم كان يركب في عشرة آلاف من إخوانه، فكان الدافع العسكري وراء حرص الخليفة الرشيد على بقاء هذا العدد من جند النصارى بالجيش الموحدي[٣].

وفى عهد الخليفة السعيد بن المأمون الموحدى (٦٤٠-٦٤٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٤٨م)، والملقب بالمعتضد والسعيدالذي بويع يوم وفاة أخيه الرشيد بن المأمون عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، لكن اختلف أهل العقد والحل من أشياخ الموحدين، والسادة من بنى عبد المؤمن عليبيعة السعيد بن المأمون، إذ قال فريق منهم أنه صغير السن، وقال فريق آخر كيف نبايع أسوداً حبشياًفما كان من السعيد إلا أن استعان بعرب السعيد وبعرب الخلط من منطقة السوس، كما استدعى أجناد النصارى فكان له جمع كبير منهم، وبعد أن تمت له الخلافة وزينته بحللها وحُليها قبض على الكارهين لخلافته، والخائفين من سطوته ومهابته[٤].

والراجح أن الخليفة السعيد انتهج نهج والده الخليفةالمأمون الموحدى فى معاملة من كرهوا خلافته وترددوا فى بيعته ونكثوا بوعودهم، ويهمنا هنا إبراز أهميةالدافع العسكرى فى هذه المرحلة، فكان وجود الجند النصارى بالنسبة لخلفاء الخليفة المأمون ضرورياًنتيجة لكثرة الفتن وانتشار الفساد، لذلك زاد عددهم وقوى نفوذهم[٥].

---

(١) النظم الإسلامية في القرون الوسطى، ص١٤٦.

(٢)ابن عذارى: المصدر السابق، ص٢٩٨، الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص٢٧، الناصرى السلاوى: المصدر السابق، ص٢٠١.

(٣) الأنيس المطرب، ص٢٥٤.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٦٠.

(٥) خوسي اليماني: مرجع سابق، ص٢٢٠.

وبالرغم من كثرة عدد الجنود النصارى بالمغرب الأقصى فى العهد الموحدى والمكانة التى تمتعوا بها والحماية التى أسبغها خلفاء الموحدين عليهم، إلا أن هناك بعض الخلفاء الذين شكوا فى إخلاص وولاء هؤلاء النصارى ومنهم الخليفة المرتضى (٦٤٦-٦٦٥هـ/ ١٢٤٨-١٢٦٦م) وعلى الرغم من عدم ثقته فيهم إلا أنه أرسل إلى الأندلس عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) يطلب أعداداً كبيرة منهم ليكونوا عونا له فوصلوا إليه فى نفس العام(١).

يتبين لنا من حصاد ما تقدم أن الدافع العسكرى يعد من أهم دوافع استقرار النصارى بالمغرب الموحدى، فقام الخليفة عبد المؤمن بن علي بضم الكثير من النصارى إلى كتائب الجيش الموحدى للحفاظ على أمن الدولة المهدد خارجياً وحمايتها داخلياً من تمردات القبائل المغربية المعارضة، كما تبين من العرض السابق أن جلب هذه الأعداد من النصارى وضمهم إلى الجيش ليس جديداًإنما ظهر منذ عصر المرابطين، وقد شجعهم على ذلك قرب إسبانيا منبلاد المغرب الإسلامي، فأصبح جلب الفرق النصرانية العسكرية أمراً معروفاً كما قال بروفنسال(٢)، وقد تجلتأهمية الدافع العسكرى فى الإقبال على جلب الجند النصارى والاهتمام بهم حين شيد لهم الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور قصرين كبيرين، وكان ذلك امتداداً لاهتمام والده الخليفة عبد المؤمن بن على بهذه الفرق العسكرية النصرانية(٣)، كما كانت العطايا والمنح تجزل بسخاء عليهم خاصة أثناء الحملات العسكرية، فضلاً عما كان يوزع عليهم فى الاحتفالات العامة والمناسبات، وكانت المرتبات تصرف لهم ثلاث مرات فى السنة، فى حين كانت مرتبات الجند الغز شهرية(٤)، وسار الأبناء على خطى آبائهم فى جلب النصارى واستقرارهم فزادت أعدادهم بالمغرب الأقصىولم يكن الدافع العسكرى هو الرافد الوحيد لدخول الجنود النصارى بل كانت هناك روافد أخرى من خلالها تدفقت أعداد من النصارى إلى بلاد المغرب، ومنها مسألة الأسر التي تسببت في استقرار عدد من النصارى في المغرب الأقصى خلال فترة الدراسة، لاسيما أولئك الأسرى النصارى الذين

(١) ابن عذاري: المصدر السابق، ص ٣٩٩؛ رضوان البارودى:مرجع سابق، ص٤٧

(٢) الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة سيد محمود عبد العزيز، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٢٢

(٣) عبد الواحد المراكشي:مصدر سابق، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٦٩، السلاوى: مصدر سابق، ج٢، ص١٤٥.

(٤) عصمت عبد اللطيف دندش: الاندلس فى نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ص٤٨، ٤٩.

وقعوا فى قبضة الموحدين عن طريق الحروب أو القرصنة البحرية التى بلغت ذروتها فى العصر الموحدى(١).

[ج] ظروف اضطرارية "الأسر والقرصنة والنفي"

نظراً لأن الحرب كانت شبه دائمة بين المسلمين المغاربة والنصارى فقد خلفت تلك الحروب العديد من الأسرى والمفقودين، وزاد تيار الهجرة من الأندلس إلى بلاد المغرب الأقصى . فكان ذلك سببًا من أسباب زيادة عدد النصارى بالمغرب الأقصى بجانب أعداد النصارى السابق وجودها خلال الحكم المرابطي(٢).

والاسير فى اللغة: هو كل محبوس فى قيد أو سجن(٣).

ويعد اللاجئ من اهل الحرب إلى احد المسلمين اثناء القتال أو بعد انتهائه اسيرا، وليس من يسقط فى الحرب فقط هو اسير، بل الاشخاص الذين التقى بهم فريق من المسلمين فى ظروف خاصة دون ان يكون هناك حرب معلنة بين الطرفين أو الفريقين بمدلول الحرب فهم اهل الحرب وان لم يوجدوا فى ميدان القتال وان اخذوا وهم مغيرون وليسوا على اهبة القتال فهم اسرى(٤)، معنى ذلك ان اسرى الحرب هم اشخاص سواء كانوا مقاتلين أو غير مقاتلين تم احتجازهم من قبل قوى معادية لهم خلال نزاع مسلح أو بعده مباشرة وينبغى ان تتوافر شروط فى الشخص كى يكون اسيرا من ابرزها ان يكون الشخص عاقلا، متأهلا للقتال، تتحقق مصلحة من اسره، مواليا لفريقه أو للدولة التابع لها(٥).

يطلق على اسر النساء "السبى" وهو ناتج عن وجود النساء فى ميدان القتال، ومن هنا تساق النساء اسيرات لدى الطرف الاخر، وبعضهن يفقدن ازواجهن خلال المعارك، وقد رأى الإسلام ان يكون من الاكرم لهن ان يجدن من جنود المسلمين من يكفلهن ويحميهن من الانحراف والتسول والمهانة والاهانة، ومن هنا أبيح التسرى فهن بشر لهن شهوة، والتسرى بهن لا عيب فيه، فقد تسرى رسول الله – ﷺ – ببعض الجوارى مثل "ماريا القبطية" وكانت اهداء من

---

(١)أحمد محمود بدر: دراسات فى تاريخ الاندلس، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٩٠.

(٢) محمد فتحة: جوانب من علاقات المسلمين بالنصارى غرب المتوسط، مجلة دار المنظومة. ص١٠٨.

(٣) ابن منظور : لسان العرب،دار صادر ، بيروت ، ١٩٢٨ م ج٤، ص١٧ .

(٤)عبد اللطيف عامر: احكام الاسرى والسبايا فى الحروب الإسلامية، دار الكتاب، ط١، ١٤٠٦هـ، ص ٨٠-٨٤.

(٥)محمد عنان شبير : احكام الاسرى فى الفقه الإسلامى، بحث منشور بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمى، جامعة الكويت، العدد ٥٦، ٢٠٠٤م، ص ٢٣٤-٢٣٩ .

المقوقس عظيم القبط فى مصر، واسلمت وانجب – ﷺ – منها ابنه إبراهيم الذى مات صغيرا، وجارية اخرى اسمها " ريحانة " وثالثة اصابها فى بعض السبى، وجارية وهبتها له زوجته زينب بنت جحش رضى الله عنها(١).

وقد افتى الفقهاء بجواز اعادة الاسيرات إلى بلادهن، اذا رأى ولى الامر ذلك، ورغبن هن فى ذلك انطلاقا من قاعدة "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"(٢).

ومن حيث مجامعة اسيرة الحرب، هل يجوز مجامعتها دون زواج ؟

فأجاب الشيخ محمد صالح المنجد "لا يحل للرجل من النساء إلا الزوجة والامة" أي الجارية، والزوجة تحل بعد الزواج الشرعى،أما الامة تحل للرجل بملك اليمين وتكون –أصلا – من سبايا الحروب، ويمكن للمسلم ان يحصل عليها من ولى الامر ان كان قد شارك فى الجهاد، أو بشرائها من صاحبها، وهى تحل له بمجرد الملك بعد استبرائها بحيضة أو ان تضع حملها ان كانت حاملا(٣).

قال تعالى **[وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانهمْ فَإِنَّهُمْ غَيْر مَلُومِينَ]**(٤).

وقال الشيخ "الشنقيطى": اذا اقدر أو نصر الله تعالى المجاهدين المسلمين على الكفار المحاربين فإن رجالهم "الكافرين" يكون امرهم بين القتل أو الفداء أو العفو عنهم أو استرقاقهم وجعلهم عبيد، ويكون الامر راجعا فى اختيار واحدة من هذه الاربع إلى الامام حسب ما يراه من المصلحة فى ذلك للمسلمين اما النساء فإنهن يصرن إماء وملك يمين، والاطفال الذكور يصيرون عبيدا، ويقسم القائد أو الامام هؤلاء بين المحاربين المجاهدين، وسبب الملك بالرق هو الكفر ومحاربة الله ورسوله، فإذا اقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين اموالهم وما اعطاهم الله من نعم

---

(١)الامام شمس الدين ابن القيم الجوزية : زاد المعارف فى هدى خير العباد، تحقيق شعيب الارناؤوط، دار الريان للتراث، القاهرة، ج١، ص٤١ .

(٢)عبد اللطيف عامر : المرجع السابق، ص٢٩٠.

(٣)الإسلام سؤال وجواب هو موقع دعوى علمى تربوى يهدف إلى تقديم الفتاوى والاجابات العملية عن الاسئلة المتعلقة بالإسلام بشكل وافٍ وميسر، تحت اشراف الشيخ " محمد صالح المنجد " الذى تلقى تعليمه على يد الكثير من العلماء المشهورين منهم الشيخ " محمد العثيمين " والشيخ " صالح الفوزان، والشيخ محمد الشنقيطى "

(٤)سورة المؤمنون الاية (٥، ٦)

لتكون كلمة الله هى العليا على الكفار جعلهم ملكا لهم بالسبى، الا اذا اختار الامام المنَّ أو الفداء لما فى ذلك من المصلحة للمسلمين(١).

وقد عرض " ون هيكمان John Hikman" صاحب كتاب " What is a Prisoner of War for"ما هو أسير الحرب إلى أسباب اتخاذ الاسرى اثناء الحروب ومن تلك الأسباب:

- عزل مقاتلين العدو الذين لا يزالون يحاربون عن ساحة المعركة أو عن رفاقهم المقاتلين مما يؤدى إلى قلة عددهم وضعفهم خاصة فى حالة اسر افراد لها تأثير فى المعركة كالقادة .
- يعد الاسر مظهر من مظاهر النصر العسكرى على الطرف الاخر مما يؤدى إلى تشجيع افراد الفريق الذى تمكن من الاسر، واضعاف معنويات الطرف الاخر.
- ومن أغراض الاسر هو استغلال الاسرى فى القيام ببعض الاعمال فى الدولة التى اسرتهم أو احتجزتهم، كفن المعمار أو نقل طرق حديثة فى الزراعة ومشاريع الرى وخلاف ذلك من الصناعات والحرف .
- تجنيد الاسرى كجواسيس على جيش دولهم وجمع المعلومات العسكرية والسياسية، والاستدلال على بعض المواقع العسكرية .
- ومن أسباب الاسر هو ارغام الاسرى على اعتناق معتقدات سياسية أو دينية .
- يتم المقايضة به على اشياء اخرى، وقد حجز النبي صل الله علية و سلم أسير من ثقيف حتى فاداه برجلين من المسلمين كاناقد اسرا(*).
- كسر شوكة العدو ودفع شره بإبعاده عن ساحة القتال لمنع فاعليته واذاه(٢).

تعرض الأسرى لأنواع مختلفة من الانتهاكات، وذلك لغياب القوانين المنظمة لكيفية التعامل معهم من قبل من اعتقلهم، فقد جرت العادة على قتل الأسرى أو تشويههم بقطع أطرافهم وسمل

---

(١)الشيخ الشنقيطى : هو محمد الامين بن عمر المختار الجنكى الشنقيطى، ولد بدولة موريتانيا درس علوم القرآن والسيرة النبوية المباركة، والادب والتاريخ، ونال الاجازات العلمية من علماء بلده موريتانيا، وتولى القضاء بها، له مؤلفات عدة منها الاسماء والطبقات نقلا وعقلا، دفع ايهام الاضطراب عن ايات الكتاب، العذب النمير فى دروس التفسير ....."

(*) انظر: " مسلم ١٢٦٢/٣ وابو داوود الترمزى ٦٢٧/٢.

(٢) ينظر كتاب جون هيكمان " وهو عالم ارصاد نيوزيلندى، وهو صاحب كتاب " ما هو اسير الحرب " what is a prisoner of war for"، حسن ابو غدة : احكام السجن ومعاملة السجناء فى الإسلام، مكتبة المنار، الكويت، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٥٠ .

أعينهم، أو يكحلون أعينهم بالمسامير المحماة أو يسلخون جلودهم ويطعمون بها الكلاب، فكان الأسير يفضل الموت على الحياة(١).

كما كانت القاعدة السائدة في التعامل مع الأسرى هي إطلاق يد الآسر في أسراه "أي قائد المعركة أو ضباطه أو جنوده" أما في الإسلام فنصت القاعدة على أن رئيس الدولة هو صاحب الحق الوحيد في تقرير مصير الأسرى ولا يجوز للآسر قتل أسيره، ولا ينبغي أن يؤذيهم أو يعذبوهم بضرب أو جوع أو عطش أو تركهم في حرارة الشمس أو البرد أو لسعهم بالنار المحرقة ولا يجوز تكميم أفواههم وآذانهم وأعينهم، ولا ينبغي وضعهم في أقفاص الحيوانات بل رفق ورحمة وإطعام وترغيب في الإسلام، وحبس الأسير تعد سياسة لاستبانة الأصلح فلإمام المسلمين حبس الأسرى حتى يرى فيهم وجه المصلحة، فإما أن يقبل فيهم الفداء بالمال أو يبادلهم بأسرى مسلمين، أو يطلقهم منًا بلا مقابل أو يوزعهم على المسلمين رقيقًا وسبيًا، فالغاية من حبس الأسير هو الاحتراز والتحفظ(٢).

قال تعالى **{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً}**(٣).

غالبًا ما كان يتم إطلاق سراح الأسرى إما عفوًا أو عن طريق تبادل الأسرى بين الطرفين، ومما يسهل عملية التبادل وجود طائفة من الرجال تخصصت في هذا المجال "الفكاكين" جمع فكاك، فكان فئة من هؤلاء الفكاكين تتصدى لهذا النشاط رغبة في الحصول على أرباح كبيرة(٤).

وكانت الفدية لتحرير الأسرى تختلف باختلاف الأوساط التي ينتمون إليها، فهناك أسرى من الخاصة يتم التعجيلبمبادلتهم أو فديتهم، وهناك بعض الأسرى المغمورين يتركون لمصيرهم لمدة قد تصل إلى أكثر من عشرين عامًا إلى أنحرروا في سياق اتفاق بين الملوك. ومن المعلوم أن أموال الصدقات كانت تتشكل من الهبات ووصايا التركات ومن الزكاة وصدقات جلود أضحيات العيد، وكان كثير من الاحباس مرصودة لخدمة الجهاد، وكانت متنوعة الأغراض

---

(١) عبد الواحد محمد الغار : أسرى الحروب في القانون الدولي العام والشريعة الإسلامية، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٢٦؛ حسن أبو غدة : مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٢) ضو مفتاح غمق : منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، بنغازي، ليبيا، ط١، د ت، ص٤١٠ ؛ محمد صالح المنجد : مرجع سابق .

(٣) سورة الإنسان ، الآيات (٧، ٨).

(٤) ابن صاحب الصلاة : مصدر سابق، ص ٣٩٣، ٣٩٤؛ ابن عذارى البيان المغرب، ص ١١٦؛ محمد فتحة: المرجع السابق، ص ١١٦ .

والغايات، منها ما يتعلق بتجهيز الخيول من أجل الجهاد لأن عدة الفارس كانت غالية الثمن، وكثير من الأحباس كانت مخصصة لتوفير المال اللازم لفداء الأسرى، وكانت أموال الأحباس تحت إشراف ناظر الأحباس(١).

ومن المعلوم أن مال الفدية يُعد دينًا في ذمة الأشخاص الذين تم تحريرهم بواسطته ويؤخذ عليهم الرهن والضمان إلى أن يتمكن الأسير الذي تم دفع الفدية من أجل تحريره من تدبير المبلغ وإعادة المال إلى ناظر الأحباس(٢).

وكانت عائلات الأسرى تشارك في افتكاك الأسرى وإخلاء سبيلهم حين يكون بمقدورها بذل المال اللازم لذلك، كما أن الدولة القائمة في المغرب الأقصى آنذاك كانت تتخذ مبادرات في هذا الصدد عادة تتزامن مع بدايات حكم السلاطين وكأنه يستهل عهده بأمور ترضي الرعية كما أن إبرام الاتفاقيات مع الدول النصرانية غالبًا ما تنص بنودها على تسهيل عمليات تحرير الأسرى من أسرهم(٣).

وقد شارك أيضاً الفقهاء بالرأي الفقهي المتعلق بتحرير الأسرى توجد فتوى ورد بها "مضى العمل باستحباب قتل الأسارى الذين يخشى منهم أن يكونوا عونًا على المسلمين مثل الشباب والمراهقين وما أشبههم فإن ترك قتلهم واستحيوا لم يجز للمسلمين مفاداتهم بالمال على حال من الأحوال، ولا بأس أن يفدي بهم أسارى المسلمين(٤).

وكان هناك صعوبات تواجه مسألة مبادلة الأسرى ومنها قد تنفذ الصدقات بسبب كثرة الأسرى في الأحوال العادية ناهيك عن أحوال الحرب كما أن التصرف في مال الأسير أو بيع ممتلكاته أمر متعذر بسبب صعوبة الحصول على توكيل من الأسير بالتصرف وهو في الأسر. وهذه نازلة فقهية بهذا المعنى "لا تباع رباع الأسارى لفكهم إلا بتوكيل منهم"(٥).

---

(١) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت٩١٤هـ) : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، ج٧، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٣٠.

(٢)الونشريسي : المصدر السابق، ج٧، ص ١٦١؛ ج٩، ص ٢٥٣ .

(٣)محمد فتحة : مرجع سابق، ص ١١٣ .

(٤)أبو العباس الونشويسي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٩ .

(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٤٧.

وقد لوحظ أن كثير من الأسرى النصارى داخل الجيش الموحدي وكذلك من المرابطين، وكان دورهم تقديم الخدمات للجيش الموحدي، ومرافقة البعض منهم للأطباء(١).

كما وفد على المغرب الأقصى خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي عدد كبير من المهاجرين حيث تزايد تيار الهجرة الأندلسية نتيجة للمواجهات المستمرة بين النصارى والمسلمين(٢).

وتعد القرصنة البحرية من الظروف الاضطرارية والتي لعبت دوراً بارزاً في استقرار النصارى بالمغرب الأقصى، ومفهوم القرصنة في اللغة يتمثل في التعدي على حقوق الآخرين لتحقيق مكاسب خاصة، ذلك باستخدام القوة، وتعني أيضاً الخطف بقوة السلاح، كما أنها عبارة عن عمليات سطو من قبل لصوص البحار يطلق عليهم قراصنة البحر حيث كانوا يسلبون الأموال والمجوهرات واحتجاز رهائن للمطالبة بالفدية، والقتل إذا تمت المقاومة من أي شخص على متن السفينة، فالقرصنة عمومًا بالأساس نشاط غير أخلاقي انتهازي تقوم به عصابات محلية(٣).

وفي العصر الوسيط ساد البحار القرصنة أو لصوصية البحر في صورة نشاط عسكري واقتصادي، وقد اشتركت فيه كثير من الدول، وقد اكتسبت مظهرين أحدهما منظم تشرف عليه الدول وتشجعه، والآخر ترعاه جماعات تسلح بعض المراكب من أجل الكسب المادي(٤).

مثلت ظاهرة القرصنة امتداد لحالة الحرب التي ميزت العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط خاصة وأن دول المرحلة (اسلامية و نصرانية) كانت تتبناها كما لو كانت اسلوبا مشروعا ضمن الحرب الشاملة بين الطرفين(١).

---

(١) ابن أبي أصبعة: عيون الأبناء في طبقات الأطباء، ص ٥٣٤؛ بوتشيش، الجاليات المسيحية بالمغرب، دار الطليعة للنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٤م ، ص٨٣ .

(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، ١٩٩٢، ص ٤٥٥ ؛ محمد الشريف : المغرب وحروب الاسترداد، تطوان، ٢٠٠٥ م، ص ٥ .

(٣) خالد أحمد الرماح : ظاهرة القرصنة الصومالية في خليج عدن، مركز سبأ للدراسات الاستراتيجية، اليمن، ص ٥٠؛ معمر الجبون : بحث عن القرصنة الصومالية وتهديد الأمن القومي، قرأت سياسية، وكالة الأنباء، سبأ، ع ١٠٦، ٢٠٠٩م.

(٤) محمد فتحة : جوانب من علاقات المسلمين بالنصارى غرب المتوسط، ندوة دولية، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب، الدار البيضاء، ٢٠٠٨م، ص ١١٢-١١٣.

و شكل التجار بإعتبارهم أكثر من يجوب ببضائعهم بمنطقة البحر المتوسط لقمة سائغة في أيدي القراصنة من الطرفين و قد تمركزت نشاطاتهم في نقط معينة كانت تشهد أكثر من غيرها رواجا كثيفا كمدينة سبتة لكونها تمثل أهم ميناء تجاري [٢].

أسفرت عمليات القرصنة عن أعداد من الاسري و السبايا و سرعان ما يتحولون الي بضاعة للبيع و الشراء بالأسواق[٥].

من خلال استعراض بعض النصوص التاريخية يتبين وقوع أعدا من الاسرى في ايدي المغاربة من خلال عمليات القرصنة التي قام بيها سكان بعض المدن الساحلية تضاف الي رصيد الاسرى و السبايا في الاسواق المغربية ،و كان يتم عملية تبادل الاسرى بين الدول المغربية و نظائرها النصرانية أو دفع مقابل مالي لفك الاسرى عبر وصايا ترصد لذلك الامر[١].

وقد عرضنا تدخل سلطات الجانبين المغاربي والنصراني وقيامهم بإبرام المعاهدات والاتفاقيات التي بمقتضاها يتم حل مشكلة الأسرى، أما عن طريق الفكاكين أو التبادل والفدية، كما كان للفقهاء ورجال الدين دورهم في هذا المجال بالدعوة للجهاد وضرورة التبرع بالأموال وكثرة الاحباس بغرض افتداء الأسرى، واختلفوا في آرائهم نتيجة لاجتهادهم وحرصهم للوصول إلى أفضل الحلول الشرعية في مسألة فك الأسرى ومنحهم الحرية.

نخلص مما سبق ذكره أن الحروب بين المغاربة والنصارى خلقت ظروف اضطرارية تعرض لها الشعوب كالأسر وهجر الشعوب لمدنهم وقراهم وضياع ثرواتهم وفقد ممتلكاتهم فزادت تيارات الهجرة كطوق نجاة بحثًا عن شاطئ يجمعهم فيه الأمن والاستقرار، كما كانت القرصنة البحرية من أبرز سمات تلك الظروف الاضطرارية والتي كانت تنتهي بسبي النساء وسلب مدخراتهم ومجوهراتهم وخطف الآمنين مقابل الفدية، وقتل المعارضين منهم.

فكان العديد من الأسرى النصارى والمفقودين والذين هجروا منهم قد جرفهم تيار شديد إلى قناة واحدة تصب بهم بأرض المغرب الموحدي كما صبت سابقًا بالكثير من بني جلدتهم بتلك

---

(١) حميد تيتاو: الحرب و المجتمع بالمغرب خلال العصر المريني(٦٩٥ـ ٨٦٩/١٢٥٨ـ ١٤٦٥م)،مؤسسة الملك عبد العزيز للنشر،الدار البيضاء ،المغرب،٢٠١٠م،ص١٥.

(٢) المرجع السابق ،ص٢٧٨.

(٥) ابن خلدون:العبر،ج٦،ص٥٧٨.

الأرض تحت ظروف متشابهة منها تجارية وأخرى عسكرية فكلها عوامل عملت على استقرار النصارى بالمغرب الأقصى.

لم يقتصر استقرار النصارى بالمغرب الموحدي على ما سبق ذكره من عوامل تجارية أو عسكرية أو غير ذلك فكانت البعثات والإرساليات النصرانية إلى بلاد المغرب الأقصى في زمن الموحدين من العوامل المهمة المؤثرة في استقرار النصارى بتلك البلاد.

[د] البعثات والإرساليات إلى بلاد المغرب بغرض التنصير:

يقصد بالتنصير أنه ذلك الجهد الكنسي الذي يقوم به الدعاة من النصارى والذين يهدفون من خلاله إلى إدخال الشعوب في الديانة النصرانية سواء الشعوب المسلمة أو الوثنية أو غيرها، كما يهدفون أيضاً إلى تشكيك المسلمين في دينهم(١).

أما المفهوم الاصطلاحي للتنصير، وهو تحويل الناس من ديانتهم التي يدينون بها إلى الديانة النصرانية وهو تشكيك المسلمين في تاريخهم، وزعزعة عقائدهم(٢).

يقول المنصّر المعروف "صمويل زويمر"(٣).... ولكن مهمة التبشير في البلاد الإسلامية ليست هي إدخال المسلمين في النصرانية فإن في ذلك هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله"(٤).

وبذلك يمكن تعريف التنصير على أنه : نشاط دعوي نصراني بمختلف الوسائل والأساليب ليتخذ الناس النصرانية دينًا لهم أو يتخلوا عن دينهم الأصلي ..... وهناك مفهومًا آخرًا للتنصير

---

(١) راشد بن عثمان الزهراني : وسائل المنصرين، مقال نشر بموقع طريق الإسلام .ط١ .

(٢) عبد الرازق عبد المجيد الارو: التنصير في أفريقيا، سلسلة مجلة دعوة الحق، ع ٢٢٧، ١٩٩٧م، ص ١٥؛ أحمد سعد الدين البساطي: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، ص ٣١، ٣٣ .

(٣) صمويل زويمر : هو لاهوتي أمركي ولد عام ١٨٦٧ م/ ١٢٣٨ هـ، أطلق عليه اسم الرسول إلى الإسلام، انشئ معهد بكاليفورنيا سمي باسم زويمر تخليدًا لأعماله في سبيل التبشير أو التنصير، عرف اللغة العربية، كان الهدف من إنشاء المعهد هو تنصير المسلمين إلا أنه اعترف بفشله الذريع حيث قال ..... أنه لا يدعو لإدخال المسلمين في النصرانية إنما يدعوا إلى إخراجهم من الإسلام، واستمر في ذلك إلا أنه فشل خلال ربع قرن ثم تراجع عن دعوته، له من الكتب " كتاب الشرق وعاداته"، توفى عام ١٩٥٢م . إضاءات . محمد أسامة بالتاريخ الأسود للكنيسة، ص ٧٠ .

(٤) عبد الرازق ديار بكرلي : تنصير المسلمين، ص ٢٢؛ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ١٦٢.

ولد عبد الرازق ديار بكرلي بمدينة حلب (١٩٤٩–٢٠١٨م)، عمل مدرساً بالسعودية، شارك في المراجعة اللغوية والفنية لموسوعة تاريخ التعليم بالسعودية.

داخل المجتمع النصراني وهو " الإبقاء على النصارى داخل دينهم،وظهور دعوات طائفية من كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية تتنافس فيما بينها لكسب أكبر عدد ممكن من النصارى أتباعًا لها"(١).

الجهود التنصيرية: من المعلوم أن التنصير في أفريقيا يرجع إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أي إبان الحكم الموحدي، حيث انطلاق الحركة التنصيرية بفرنسا عام (٦٠٤هـ/١٢٠٨م) بتأنيس المذهب الفرنسيسكاني على يد فرانسيسكو دي أسيز Francisco de Asis، وتلا ذلك اجتماع ديني عقد في سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٩م) اجتمع فيه ما يقرب من خمسة آلاف راهب من مذهبه بغرض إرسال بعثات تنصيرية إلى مختلف مناطق العالم ومن بينها كانت بعثة المغرب، توجهت أكثر البعثات إلى مدينتي سبتة ومراكش بالمغرب الأقصى(٢).

كان هذا التوجه للحركة الصليبية في أوروبا إذ رأت هذه الحركة الفرنسسكانية في الحقبة من (٧هـ/ ١٣م) عدم الاعتماد على المواجهة الحربية التي كانت تعد الطريق الوحيد لمواجهة الإسلام والمسلمين، وعليها أن تحاور المسلمين لتوصلهم إلى اعتناق النصرانية والإيمان بها، لذلك سعىالنصارى لإنشاء كنائس بالمغرب الأقصى خدمة لأهدافهم التنصيرية، ولبعث القوة في الحروب الصليبية وتهيء لها أسباب الانتصار، وهو الأمر الذي قابله الخليفة أبو محمد عبد الله العادل الموحدي (٦٢١-٦٢٤هـ/ ١٢٢٤-١٢٢٧م) بالرفض، واستمرت هذه البعثات التنصيرية والحث على تحقيق سعيها بغرض إقامة كنيسة بمراكش،وتوافدت إلى المغربالأقصى الأساقفة وكثيرمنرجال الدينالنصراني(٣)، مما زاد من وجودهم بالمغرب الموحدي والاستقرار به.

تم بناء الكنيسة بمدينة مراكش في عهد الخليفة المأمون (٦٢٤-٦٣٠هـ/ ٢٢٦-١٢٣١م)،ولا يستبعد وجود معابد نصرانية في مدن مغربية أخرى(٤).ومن المؤكد أن هذه الكنيسة وتلك المعابد كانوا مصدر قوي لجذب الإرساليات والبعثات التنصيرية إلى بلاد المغرب الأقصى في العصر الموحدي والاستقرار به.

---

(١) عبد الرازق الأره : مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) بديعة الخرازي : مرجع سابق، ٢٠٠٧م ، ص ٢٣؛ ينظر : سعد الدين صالح : احذروا الأساليب الحديثة ؛ التنصير في أفريقيا : ص ٣١ .

(٣) بديعة الخرازي : المرجع السابق، ص ٢٥ ؛ عبد الجليل شلبي : الإرساليات التبشيرية، منشأة المعارف . الإسكندرية، بدون، ص ١٥١ .

(٤) إبراهيم القادري بوتشيش : مرجع سابق، ص٢٥.

والإرساليات هي البعثات التي توفد من الهيئات النصرانية لتعريف الناس بالإنجيل، وأعضاء هذه الإرساليات أو البعثات من المثقفين الذين درسوا وتخرجوا من مدارس خاصة بغرض التنصير(*). ومن أبرز المنصرين "ريمورلول" الذي ولد بجزيرة ميورقة سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م) تقريبًا(١).

توجه العديد من البعثات والإرساليات إلى بلاد المغرب الأقصى بغرض التنصير، فمنذ عام (٦٢١هـ/ ١٢٢٥م) أرسل الكرسي الحواري البعثات التنصيرية إلى بعض مدن المغرب كمدينة سبتة، ومدينة فاس ومراكش، لممارسة نشاطها التنصيري سواء في تلك المدن أو داخل الأحياء التي تقيم فيها الجاليات النصرانية كضواحي المدن الساحلية و لكنها قوبلت بالصد و عدم الاستجابة من المغاربة.

(*) التبشير: "Evangelization" هو التعبير النصراني لحملات التنصير، لكن من رأي كثير من ذوي الاختصاص أنه تعبير في غير محله، لأن لفظ التبشير هو من صفات الرسول "عليه الصلاة والسلام" : "ما أرسلناك إلا شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا" وعندما أرسل "صلى الله عليه وسلم" معاذ وأبي موسى إلى اليمن قال لهما " بشروا ولا تنفروا" وكانت دعوة "عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله" صلى الله عليه وسلم، والتي كان من أبرز معانيها أنها دعوة إلى التوحيد وليس إلى التثليث " وإنها خاصة ببني إسرائيل فلا داعي للترويج بها خارج حظيرة الخراف، وهذا على لسان السيد المسيح لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة " إنجيل متى ١٥ : ٢٤، متى ١٠ : ٥-٦ .

ينظر التنصير في أفريقيا، ص ٢١ ؛ عبد الجليل شلبي، مرجع سابق، ص ١٤٩، ١٥٠ ؛ وسائل المنصرين، طريق الإسلام، ص ١ .

(١) عبد الرازق عبد المجيد الأرو : مرجع سابق، ص ٢٤.

الخاتمة

توصل الباحث من خلال هذا البحث الي مجموعه من النتائج أبرزها:ـ

- بين البحث أسباب أو دوافع استقرار النصارى ببلاد المغرب الاقصى في عصر الموحدين خلال فترة البحث (٥٤١-٦٦٨هـ/١١٤٦-١٢٦٩م) وهي دوافع تجارية ، ودوافع عسكرية و دوافع الظروف الاضطرارية كالاسر و النفي ، و البعثات و الارساليات بغرض التنصير.
- رصدت الدراسة دوافع استقرار النصاري بالمغرب الاقصي في عصر الموحدين منها الدافع التجاري حيث ازدهر النشاط التجاري بالدول المتوسطية في هذه الحقبة التاريخية نظراً لان منطقة المغرب من أقرب المناطق للدول النصرانية ، أدي ذلك الي تشجيع التبادل التجاري بين الطرفين ، ترتب على ذلك توافد التجار النصارى الي مدن و سواحل المغرب الاقصي

اثبت البحث ان مرحلة حكم الموحدين استقبل خلالها المغرب الاقصي أعداد كثيرة على مراحل متفاوتة من مختلف الشعوب النصرانية ، فكان لهم الاحياء الخاصة لاقامة الجاليات الوافدة من تجار و عسكر و رقيق و سبايا الحروب و الاسرى .